

تكوين الإمبراطورية المرابطية

تطلب تكوين الإمبراطورية المرابطية حوالي نصف قرن من الزمان (447-496هـ)، وشارك في العملية أميران اثنان هما أبو بكر بن عمر اللمتوني ويوسف بن تاشفين. وكانت المواجهة بالأساس مع القبائل الزناتية بزعامة مغراوة التي تحكمت في مختلف مناطق المغرب عدا سوس. وقد مرت العملية بثلاثة مراحل:

- 1- ضم المغرب جنوب فاس
- 2- ضم المغرب الشمالي
- 3- ضم الأندلس

1- ضم المغرب جنوب فاس

لما ذاع صيت المرابطين بقيادة عبد الله بن ياسين كمجاهدين ومحتسبين وعادلين تطلعت إليهم قلوب المسلمين في المغرب لتخليصهم من الظلم والاستبداد، فبعث إليهم أهل درعة وسجلماسة "يرغبون منهم الوصول لبلادهم ليطهروها مما هي فيه من المنكرات وشدة العسف والجور، وعرفوهم بما هم فيه بها أهل مسعود بن وانودين المغراوي" (ابن أبي زرع، الأنيس، ص.127). وبعد استشارة أصحابه من زعماء المرابطين وافق عبد الله بن ياسين على الاستجابة لاستغاثتهم.

دخل المرابطون درعة في صفر 447هـ / 1053م فسيطروا على إبل لمسعود بن وانودين المغراوي فأقبل إليهم في جيوشه ووقع الصدام، فانهزم ابن وانودين وقتل ودخل المرابطون سجلماسة وعينوا عليها عاملاً. وهنا تقول بعض الروايات إن يحي بن عمر مات في بعض حروبه ببلاد السودان وخلفه أبو

بكر بن عمر (الأنيس) لكن رواية أخرى تجعل وفاته قبل فتح سجلماسة بسنة وهذه؛ ربما، أرجح.

وفي السنة الموالية؛ ومن هناك، اتجهوا نحو سوس وسيطروا على أهم مراكزه خاصة جزولة وماسة وتارودانت حيث قضوا على فرقة الشيعة البجلية التي كانت تتحكم في المنطقة، ثم صعدوا شمالا فضموا شيشاوة ونفيس وجدميوة وبايعتهم رجراة وحاحة.

وفي عام 449هـ حاصروا مدينة أغمات مركز الحوز الأول، ولما اشتد الحصار على حاكمها لقوط بن يوسف المغراوي أسلمها وفر نحو تادلة إلى بني يفرن حكامها لاجئا. وبعد تنظيم أحوال أغمات التي صارت المركز الرئيسي للدولة الجديدة، استأنف المرابطون زحفهم نحو تادلة فهزموا بني يفرن وقتلوا لقوط المغراوي، وتزوج أبو بكر ابن عمر أرملة زينب النفاوية.

وبعد استراحة بأغمات انطلق المرابطون نحو تامسنا فاصطدموا ببرغواطة تحت قيادة أبي حفص عبد الله بن أبي عبيد البرغواطي في حروب شديدة أصيب فيها عبد الله بن ياسين بجروح تسببت في وفاته. وبعد دفنه بكريضة، عاد المرابطون إلى الحرب فهزموا برغواطة وشتتوا رجالها وأبادوا الكثيرين وأخضعوا البلاد عام 451هـ.

وطرح في هذا الوقت مشكل خلافة ابن ياسين، فرواية تقول إن المرابطين بايعوا أبا بكر قائدا عليهم وصار صاحب السلطتين الدينية والسياسية، بينما يذكر القاضي عياض وابن خلدون أنهم عينوا سليمان بن حدو ليتولى الإرشاد محل ابن ياسين، وإذا كان صاحب الرواية الأخيرة موثوقا مما يدفع لتصديقها فإن واقع الحال أثبت فيما بعد أن صاحب السلطة الأول لو يكن سوى أبا بكر وأن سليمان لم يذكر أبدا في المصادر في اتخاذ القرارات الحاسمة.

وفي عام 452هـ غزا المرابطون بلاد فازاز وبلاد مكناسة بعد استنجد مهدي الكزنائي بهم ضد تميم بن معنصر المغراوي صاحب فاس.

وفي هذا الوقت وصلت أخبار من الصحراء بشأن اندلاع صراع بين جدالة ولمتونة، فاضطر أبو بكر إلى الرحيل إلى هناك لإصلاح الوضع، لكنه وقبل المغادرة سلم قيادة المرابطين لابن عمه يوسف بن تاشفين اللمتوني وطلق زينب النضراوية وأمره بالزواج بها. وهنا تنتهي المرحلة الأولى من التوسعات المرابطية. ووافقت قد عرفت هذه اللحظة تمردا للقبائل الزناتية التي سبق إخضاعها.

2- ضم المغرب الشمالي

وتهم هذه المرحلة التوسع في شمال المغرب وإتمام توحيدده تحت السلطة المرابطية. فما إن انضرد ابن تاشقين بالسلطة حتى شمر على ساعد الجد وانطلق في حملات واسعة بمساعدة مجموعة من القواد الأكفاء.

ففي 455هـ، دخل فاس على تميم بن معنصر المغراوي بعد حصار شديد وحروب قوية، ثم رحل إلى غمارة تاركا عاملا لمتونيا على المدينة. واستغل تميم المغراوي الفرصة وعاد إليها وقتل العامل. وفي مواجهة مع المرابطين قتل تميم وخلفه القاسم بن محمد بن عبد الرحمن الزناتي المكناسي ففك حصار المدينة وهزم المرابطين. فاضطر يوسف إلى ترك حصار قلعة مهدي بجبال فازاز لبعض رجاله وقاد جولة عسكرية ضمت بني مراسن (456هـ) وورغة (458هـ) وبلاد غمارة (460هـ) التي يظهر أنها تساند أهل فاس. وفي عام 462هـ حاصر فاس ودخلها عنوة وقتل كثيرا من زناتة، ووجد العدوتين داخل سور واحد.

وفي 455هـ بايع حاكم مكناس المهدي بن يوسف الجزنائي يوسف بن تاشفين وتركه عاملا على المدينة، لكنه قتل عندما حاول دعم عامل فاس أمام تميم بن معنصر المغراوي عام 456هـ، فانتقل حكم مكناسة إلى عامل ليوسف بن تاشفين.

وفي 463هـ ضم المرابطون ملوية ووظاظ.

وفي 465هـ دخلوا الدمنة بأحواز طنجة.

وفي 467هـ أخضعوا غياثة وبنو مكود وبنو رهينة بأحواز تازة.

وفي 470هـ دخلوا طنجة وقتلوا سقوط البرغواطي حاكم سبتة.

وفي 472هـ غزوا تلمسان على يد القائد مزدلي.

وفي 473هـ فتحوا جرسيف ومليلية وجميع بلاد الريف ونكور التي خربها تماما.

وفي 474هـ فتحوا وجدة وتنس ووهران وأعمال شليف إلى الجزائر المدينة.

وفي عام 477هـ دخلت سبتة برا وبحرا على ضياء الدين يحيى بن سقوط البرغواطي.

لقد صار المغرب تحت السلطة الكاملة ليوسف بن تاشفين الذي كان عليه أن يحل مشكل القيادة أثناء توسعته، ذلك أن أبا بكر بن عمر عاد من الصحراء وطمع في استعادة السلطة، لكن تصرف يوسف بمشورة من زينب وأتباعه أقنعه بتجنب المواجهة فتنازل عن السلطة ليوسف منذ 467هـ وعاد إلى الصحراء محملا بالهدايا حيث سيقم حتى وفاته عام 480هـ.

وأثناء التوسع كان يوسف ينظم مملكته ويعطيها سمات الملك، فقد اتخذ عاصمة جديدة (مراكش)، وعين العمال في كل المناطق التي ضمها من بين بني عمومته، وسك عملة باسمه منذ 473هـ. واستطاع أن يفرض نفسه كقائد أول في المغرب، لذلك تطلعت إليه قلوب الأندلسيين المهتدين في وجودهم من قبل قشتالة.

3- ضم الأندلس

منذ سقوط الخلافة الأموية بالأندلس انقسمت البلاد إلى مجموعة من الإمارات تحت زعامات بربرية وعربية وصقلبية أطلق عليها اسم إمارات الطوائف وأشهرها: إمارات إشبيلية وغرناطة وطليطلة وسرقسطة وقرطبة... لكن

الأولى تبقى أقواها. ودخلت في صراعات فيما بينها مما أضعفها وأعطى الفرصة لمملكة قشتالة المسيحية لتفرض عليها الوصاية والحماية، إذ صارت تغير على أراضيها في كل وقت، وتفرض عليها أتاوات سنوية، وتعيرها المقاتلين لضرب بعضها البعض. ولما تولى ألفونسو السادس عرش قشتالة زاد جشعه ولم تعد الأتاوات تكفيه، بل أراد أخذ كل البلاد، فسيطر على طليطلة من يد بني ذي النون عام 478هـ موجها صفة قوية لملوك الطوائف ليستفيقوا ويبحثوا عن يحميهم منه. وأمام ذيوع صيت المرابطين ويوسف بن تاشفين خاصة توجهوا إليه بزعامة أمير إشبيلية المعتمد بن عباد يطلبون دعمه وحمايته. وبعد استشارة الزعماء المرابطين والفقهاء قبل مساعدتهم بعد شروط وترتيبات.

اجتاز يوسف البحر إلى الأندلس عام 479هـ وقاد ملوك الطوائف في حرب ضد ألفونسو السادس انتهت بمعركة الزلاقة الشهيرة التي انهزم فيها القشتالي وطار صيت المرابطين في كل العالم الإسلامي. وبعدها عاد إلى مراکش.

وفي 481هـ عاد الأندلسيون للاستنجاد من جديد من ضرر حصن لبيط الذي أقامه ألفونسو 6 في شرق البلاد وسط أراضي المسلمين واستغله للإغارة عليهم، فعبر البحر وحاصر الحصن، لكنه اكتشف خلافات ملوك الطوائف وخياناتهم، ففك الحصار وعاد إلى المغرب وقد تغير عليهم.

وفي 483هـ عاد إلى الأندلس فأخذ غرناطة ومالقة من بني زيري (عبد الله وتميم) ونفاهما إلى أغمات. وعاد إلى المغرب بعد أن أوصى قائده سير بن أبي بكر بأخذ كل البلاد.

في عام 484هـ أخذ سير وقواده قرطبة والمرية وجيان وبياسة وأيذا والبلاط والمدور ودخل إشبيلية في 22 رجب 484هـ، ونفى المعتمد بن عباد إلى أغمات. ثم دخل مرتلة ورندة وبطليوس ومرسية ودانية وشاطبة وشقورة. وتأخر أخذ بلنسية حتى عام 495هـ. أما سرقسطة فقد انقضت هيبته من السقوط في يد قشتالة وبقيت مستقلة في يد التجيبين.

لقد صارت الأندلس سرقسطة مرابطية.

اكتمل بناء الإمبراطورية المرابطية وصارت تمتد من الجزائر شرقا إلى المحيط الأطلنطي غربا ومن حدود طليطلة شمالا إلى بلاد السودان جنوبا، وكان لابن تاشفين الفضل الكبير في تكوينها قائدا وزعيما.

وفي عام 500هـ أسلم يوسف الروح وترك حكم البلاد لابنه علي الذي استمر فيه حتى 537هـ ليخلفه ابنه تاشفين لمدة سنتين ثم حفيده إبراهيم حتى سقوط مراکش في يد الموحيدين.

